أصل الإبداع الفني عند سيغموند فرويـد

الأستاذة: أسماء بلهادي
جامعة الجزائر 2
belhadiasma@gmail.com

ملخص:
نحاول في هذه المقالة النظر في موقف التحليل النفسي الفرويدي من قضية الإبداع الفني، فكما هو معلوم فإن سيغموند فرويد كان قد وضع أسس علمه الجديد (التحليل النفسي) على مفاهيم محددة أبرزها اللاشعور والهو والرغبة الجنسية، وهذه المفاهيم تمّ توظيفها لتعليل نشأة الدين ونشأة الحضارة مثلا، لذلك حاولنا أن نتبيّن موقفه من نشأة ومن أصل الإبداع الفني على تنوّع مجالاته، فيما إذا كان فرويد قد علّل تلك النشأة وذلك الأصل بتلك المفاهيم ذاتها أم لا؟
الكلمات المفتاحية: الفن، الرغبة، اللاشعور، الإبداع الفني، الأحلام.

Abstract:
In this article, we try to consider the position of Freudian psychoanalysis on the issue of artistic creativity, as it is known that Sigmund Freud had laid the foundations of his new science (psychoanalysis) on specific concepts, most notably the unconscious, the idyll and the sexual desire, and these concepts were employed to justify the emergence of religion and the emergence of civilization For example, we tried to find out his position on the origin and origin of artistic creativity in the diversity of its fields, whether Freud had justified that origin and that origin with those same concepts or not?
Words key: sexuel, art, creativity, psychanalysis, unconscious.

مقدمة:
يعتبر الفن من الأعمدة الأساسية، إلى جانب كل من الفلسفة والدين والعلم، التي قامت عليها الحضارات البشرية الغابرة منها والمعاصرة، فنجد مثلا فن النحت وفن قرض الشعر وفن الرسم وفن الرقص وفن الموسيقى، وفن الخط وغيرها من الفنون التي أجادت بها قريحة الإنسان عبر تاريخه، إلاّ أنه إذا كان باستطاعة الكلّ تذوق الفن الذي يهواه، إلاّ أنه ليس باستطاعة أيّا كان الإبداع فيه، وكأنّ الأمر يتطلّب نوعا من الموهبة والبصيرة التي لا نجدهما عند كل الناس وإنما تجيد بها قرائح أفراد قلائل ممتازين وموهوبين، لذلك عبر تاريخ الفن المديد هناك أسماء قليلة تضيء سماءه فيتردّد على مسامعنا مثلا اسم بيكاسو ودافينتشي وموزار وجوته...الخ.

إن الإشكال الذي نودّ طرحه هنا هو: لماذا ليس في استطاعة الكل إبداع عمل فني؟ هل الأمر متعلّق بموهبة فطرية؟ أم أن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت فقط وكأي صنعة مكتسبة تتطلّب نوعا من المثابرة لتعلمها وإتقانها؟

لماذا مازلنا نفضّل أعمالا فنّية تعود لأزمنة غابرة ونعتبرها أكثر جمالا وأصالة وإبداعا من أعمال معاصرة ؟

ارتأينا للإجابة على هذه التساؤلات النظر في موقف التحليل النفسي الفرويدي من هذه القضية فماذا كان تعليل سيغموند فرويد لأصل الإبداع الفني وهل وفق فيما ذهب إليه؟؟

1. تأثّر فرويد بالإنتاج الفني و توظيفه في مؤلفات

من الملاحظات الأساسية التي يمكن لأي قارئ لكتب فرويد تسجيلها، هي كثرة استشهاده بأقوال كبار الأدباء والشعراء والروائيين، مما يدلّ على المكانة التي احتلّتها هذه الفئة من المبدعين في فكره وتكوينه (*). وبالفعل، كما ذهب أحدهم، فإن فرويد " لم يكن مجرّد عالم نفساني، فقد كان إلى جانب ذلك واسع الاطلاع على الآداب الأوروبية متمثّلا لروحها كل التمثّل وربّما كان هو نفسه ذا نزعة أدبية"([1]) ممّا خوّله لأن يكون ناقدا أدبيا إلى جانب كونه محللا نفسانيا.

اعترافا منه بقيمة الفن والأدب وحكمة القائمين عليهما يشيد قائلا: " الشعراء والروائيون حلفاء كرام... ومن الواجب تقدير شهادتهم حق قدرها لأنّهم يعرفون فيما بين السماء والأرض بأشياء كثيرة لا تجرؤ حكمتنا المدرسية على أن تعلم بها بعد، وهم في معرفة النّفس البشرية معلّمونا وأساتذتنا...لأنهم ينهلون من موارد لم نفلح بعد في تسهيل ورودها على العلم"([2]).

ممّا لا شكّ فيه أن فرويد قد "استعان...بالأدب منذ بداياته النظرية الأولى"([3]) يبتغي منه توكيدا لأطروحاته وفرضياته، خصوصا ما تعلّق منها بعقدة أوديب كما وجدها ماثلة في أعمال مسرحية مثل: 'أوديب ملكا' لسوفوكل و 'هاملت' لشكسبير([4]). فهؤلاء الموهوبون لطالما " اتّخذوا مسائل الموقف الأوديبي موضوعا لهم"([5]). وكأنهم يدركون أن " ثمّة قانونا عاما في الحياة النفسية... بكل ما ينطوي عليه من دلالة وجدانية"([6])

وجد فرويد، انطلاقا من هذا الالتفات إلى عبقرية الشعراء والروائيين، نوعا من الإغراء، دفعه لمحاولة تفهّم سير العمليات الإبداعية الأدبية والفنية. ويمكن القول إنه حاول الإجابة عن سؤالين أساسيّين يتعلقان بالإبداع الفني عموما وهما:

كيف يصير الفنان فنانا؟ ما الذي يجعل الأديب أديبا؟ وما العلاقة بين الفنان أو الأديب ومضمون إنتاجه الفني؟ هل من الممكن التعرّف إلى شخصية المبدع انطلاقا من مضمون إبداعه؟([7]).

---

*لا يستثنى من ذلك الشعر العربي الكلاسيكي إذ يختم فرويد كتاب "ما فوق مبدأ اللذة "بأبيات من المقامة الثالثة من مقامات الحريري التي نقلها المستشرق روكرت إلى الألمانية ."

تعارجت لا رغبة لي في العرج ولكن لإطراق باب الفرج
والقي حبلي على غاربـــي واسلك مسلك من قد مرج
فإن لامني القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج

فرويد(سيغموند)، ما فوق مبدأ اللذة،ترجمة، إسحاق رمزي،الطبعة الخامسة،(القاهرة:دار المعارف،دون تاريخ)، ص107.

[1]- إسماعيل (عز الدين)، التفسير النفسي للأدب، الطبعة الرابعة،(الفجالة: مكتبة غريب، دون تاريخ)، ص17.

[2]-فرويد(سيغموند)،الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة: جورج طرابيشي، الطبعة الأولى،(بيروت: دار الطليعة للطباعة و النشر،ديسمبر 1978) ص7.

[3]- ماريني(مارسيل)،النقد التحليلي– النفسي .ضمن كتاب : مجموعة من المؤلفين،مدخل إلى مناهج النقد الأدبي،دون طبعة (الكويت :المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1997) ص59.

[4]- المرجع نفسه .

[5]-فرويد (سيغموند)، حياتي والتحليل النفسي، (مصدر سابق)، ص97

[6]- المصدر نفسه، ص 96

[7]- الدروبي (سامي)،علم النفس والأدب، الطبعة الثانية، (القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ)، ص 225

2. اللاشعور ودوره في الإبداع الفني:

يعتقد فرويد أن الفنان لا يختلف عن الحالم والعصابي. فالتشابه بين الفنان والحالم يكمن في أن" الأحلام التي يتخيّلها الأديب ويصوّرها في قصته، قابلة للتأويلات ذاتها التي نفسر بها أحلام الليل. أي إن العمليات اللاشعورية التي تؤثر في صياغة الأحلام هي ذاتها التي تعمل وراء النشاط المبدع للشاعر أو القصصي"([8]). ولما كانت الأحلام، في اعتقاد فرويد، هي" تحقيق...لرغبة تكون في معظم الأحوال مكبوتة ومكبوحة"([9]) فإن " الأعمال الفنية (هي الأخرى) إشباع خيالي لرغبات لا شعورية شأنها شأن الأحلام"([10]).

من ثم إذا كان للأحلام مضمون ظاهر وآخر كامن، كما رأينا سابقا، فإن " للعمل الفني كما...للأحلام مضمونين: المضمون الصريح والمضمون الكامن ومهمة التحليل النفسي...تأويل الرموز التي يصطنعها الأديب وذلك للكشف عن المضمون الكامن"([11]).

غير إنه إذا كان الفنان يشبه الحالم فيما ذكرناه إلا أنه يتميز عنه في السماح للآخرين بالاطلاع على أحلامه الخاصة انطلاقا مما يبدعه من فن فالفنان " يقلل من تضخم الأنا عنده وهذا ما لا يفعله الحالم"([12]) هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجده يحملنا على الشعور بالمتعة ومشاطرته بعض انفعالاته واندفاعاته ونيل " اللذّة الأولى التي تغرينا...إذ يتاح لنا أن نصبح حالمين مع الفنان"([13]). وكأن للفنان قدرة على إثارة مكبوتاتنا وتحريكها انطلاقا من الفن الذي يقدمه لنا.

يقول فرويد :" الأعمال الفنية إشباع خيالي لرغبات لا شعورية شانها شان الأحلام... ولكنها تختلف عن منتجات الحلم النرجسية الاجتماعية من حيث أن المقصود بها إثارة اهتمام الغير وأن بوسعها أن تستثير وترضي فيهم بدورهم الرغبات اللاشعورية نفسها"([14]).

كذلك لا يختلف الفنان المبدع، في رأي فرويد، عن العصابي فكلاهما يجنح إلى الخيال لإشباع رغبات مكبوتة تعذّر إشباعها في الواقع([15]). وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فإنّه يكمن في كون الفنان لا يضل حبيس الخيال و إنما يرجع إلى واقعه بإبداعه الفني([16]) كذلك هو " يستطيع تخطي عتبة اللاشعور والإفلات من رقابة الأنا الأعلى محققا رغباته ومكبوتاته بوسائله الفنية الخاصة وهو بعد ذلك إنسان عادي سوي وهذا ما لا يستطيعه الإنسان العصابي غير الفنان"([17]).

وبما أن علة العصاب عند المصاب به هي، في الغالب، رغبة جنسية لم تجد وسيلة للإشباع فإن الفنان الذي يشبه العصابي علّة إبداعه هي رغبات جنسية، في أصلها، استطاع تحويل مجراها من خلال عمليّة تصعيدها في شكل إبداعات فنية يقدمها للمجتمع. من ثم فإن

---

[8]- وهبة (مراد)، يوسف مراد والمذهب التكاملي،دون طبعة،(الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974)، ص277

[9]- فرويد (سيغموند)،تفسير الأحلام، (مصدر سابق)، ص51

[10]- فرويد (سيغموند)،حياتي والتحليل النفسي، ص75.

[11]- وهبة (مراد)، يوسف مراد و المذهب التكاملي، (مرجع سابق)، ص278-279

[12]- سويف(مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، الطبعة الرابعة، (القاهرة:دار المعارف، دون تاريخ) ص74

[13]- المرجع نفسه.

[14]-فرويد (سيغموند)، حياتي و التحليل النفسي، (مصدر سابق)، ص75.

[15]- المصدر نفسه

[16]- المصدر نفسه.

[17]- المختاري (زين الدين)، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورةالشعرية في نقد العقاد (نموذجا)دراسةشعرية نقدية(دمشق :اتحاد الكتاب العرب 1998) ص11

" نظرية التحليل النفسي... ترى في الفن تعويضا عن حرمان وترى في الخلق الفني تصعيدا لغرائز مكبوتة في نفس الفنان"([18]).

إن معالجة فرويد لمسالة الإبداع الفني نجدها لا تخرج عن الأفكار الأساسية التي استنتجها من علاجه للمرضى العصابيين: ذكريات الطفولة وتأثير الغرائز الجنسية والصراع النفسي وحدوث العصاب....الخ. ولما كان الأمر كذلك فإن مهمة التحليل النفسي في دراسته للظاهرة الفنية تتلخص في كشف العلاقات المتبادلة بين ما تأثّر به الفنان في حياته وفي طفولته وبين إنتاجه الذي منه يتم استخلاص ما يعتمل في نفسيته من دوافع ورغبات. لان الشعراء والروائيين مثلا "يجعلون الأبطال الذين أبدعتهم مخيلتهم يحلمون... ولا يكون لهم من هدف غير أن يصوروا من خلال أحلام أبطالهم حالاتهم النفسية"([19]).

قام فرويد بتحليل العديد من الشخصيات الفنية والأعمال الروائية مثل تحليله لرواية "غراديفا"(*) تحليلا نفسيا ويعتبر هذا العمل التحليلي للرواية " أول محاولة من نوعها في هذا المضمار ولكنها أيضا المحاولة النموذجية بالنسبة إلى كل تأويل تحليلي نفسي للأعمال الأدبية و الفنية"([20]).

تروي الرواية حكاية عالم آثار شاب يدعى نوربرت هانولد وقعت عيناه - وهو في روما- على تمثال صغير حاز على إعجابه الشديد إلى درجة الهذيانdélire* والتمثال كان في شكل فتاة في مقتبل العمر تمشي و قد رفعت قليلا ذيل ردائها الكثير الثنايا فظهرت قدماها في الخفّين اللذين تنتعلان. إحدى القدمين مبسوطة أرضا والثانية على وشك الانطلاق فلا تمس الأرض إلا بطرف إبهام الرجل، بينما ترتفع عنها النعل والكعب علي نحو يكاد يكون عموديا...هذه المشية غير المألوفة والتي في غاية الرشاقة هي التي كانت قد استرعت انتباه الفنان النحات وهي التي تأسر بالرغم من انقضاء أجيال وقرون أنظار الأثري الشاب([21]). وبعد هذيان طويل وأحلام راودته اكتشف أن تعلقه بتلك المنحوتة ما هو إلا صدى لذكرى طفولية قديمة عندما كانت له صديقة اسمها زووي جمعت بينهما صداقة و ربما حب طفولة تطور إلى حب حقيقي. فبينما الفتاة احتفظت بهذا الحب فإن الشاب "هانولد" كبت تلك المشاعر لأسباب لم يفصح عنها الروائي فكانت المنحوتة هي من حررها منه. (من الكبت)... ويعتقد فرويد أن هذه الرواية تعكس لاشعور مبدعها([22]).

قام فرويد بالإضافة إلى رواية غراديفا بتحليل شخصية الرسام الايطالي " ليوناردو دافنشي "Leonardo Davinci (1452-1519) وقد ركز فرويد في تحليلها على معطيات خاصة بطفولة الفنان منها انفراده بأمه أكثر مما تتطلب الحياة السوية لغياب الأب الذي لم

---

[18]-المختاري (زين الدين)، المدخل إلى نظرية النقد النفسي،(مرجع سابق)، ص224

[19]- فرويد (سيغموند)، الهذيان والأحلام في الفن،(مصدر سابق)، ص 7

*- الرواية من تأليف الكاتب الألماني فلهلم ينسن(1911-1837).وبإمكان القارئ الرجوع إلى كتاب "الهذيان والأحلام في الفن" للتعرف على جزئيات الرواية وتحليل فرويد لها.

[20]- فرويد (سيغموند)، الهذيان و الأحلام في الفن ،انظر الغلاف الخارجي للكتاب بقلم جورج طرابيشي.

*-**الهذيان**:اختلال مرضي يصيب الشخصية يصحبه اعتقاد وهمي في وقائع غير حقيقية أو في تصورات خيالية لا أساس لها من الواقع. فرويد (سيغموند)، الموجز في التحليل النفسي ، ص165(المترجمان).

[21]- فرويد(سيغموند)،الهذيان والأحلام في الفن، (مصدر سابق)، ص10.

[22]-المصدر نفسه.

يكن زوجا شرعيا لأمه، الأمر الذي جعله يهتم بالجنسية في وقت مبكر وجعله من الجنسيين المثليين في علاقاته بمريده([23]).

السؤال الذي يطرح هنا:هل نجح فرويد بتحليله النفسي في الكشف عن طبيعة الإبداع الفني؟

يرى مصطفى سويف أن منهج فرويد (التحليل النفسي) في دراسة الظاهرة الإبداعية هو منهج تبريري وليس منهجا تجريبيا إذ" لما كانت النظرية لديه سابقة على التجريب، على الأقل في هذا الميدان، فقد تعسّف في كثير من المواضع إلى درجة لا شك أنها تقلل من القيمة العلمية لبحثه...هذا التعسف الذي يبدو بوضوح في أن الباحث (فرويد) يقصد نحو شيء يعرفه من قبل معرفة تامة هو الذي يحملنا على القول بان منهج فرويد في هذا البحث لم يكن منهجا تجريبيا موجها بالمعنى الدقيق لم يكن منهج الفروض التي تغذيها التجربة أو تدحضها بل كان منهجا تبريريا"([24]) إذ " بدأ... بنظرية راسخة لديه بحيث أن انتقاءه وتحليله للوثائق...كان من قبيل التبرير ومن هنا...كان اهتمامه بالوثائق منصرفا إلى ما تكشف عنه من مسائل شخصية وشبقية بوجه خاص"([25]) .

هذا بالإضافة إلى ما اصطبغ به منهجه التحليلي من" صبغة مثالية على طريقة المعللين بالعلة الأولى...فأما عن العلة الأولى فهي اللاشعور بلا جدال ومعظمه مكتسب في الطفولة نتيجة... صدمات وتوترات انفعالية نضطر إلى كبتها"([26]).

أمّا فيما يخص الدّراسة التحليلية التي قام بها فرويد لشخصية ليوناردو دافينتشي، فيعتقد مصطفى سويف أن" التّعليل بالتّسامي ضرب من التّعليل اللفظي لا أكثر"([27]) لأنّ فرويد، في رأي الباحث، عجز عن الإجابة عن السّؤال الآتي:" لماذا يأتي التّسامي بعد الكبت في حالة دافينتشي دون معظم أبناء المجتمع ؟"([28])

3. **نقد موقف فرويد من أصل الإبداع الفني:**

على الرغم من أن التحليل النفسي قد سلط الضوء على الجوانب النفسية في الإبداع الفني إلا انه لم يستطع الاهتداء إلى ماهية الإبداع ذاته وفرويد نفسه يقر بعجز منهجه التحليلي في إدراك هذه الغاية عندما كتب يقول: "فالتحليل لا يملك أن يكشف عن طبيعة الموهبة الفنية"([29])

إن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الرؤية الفرويدية للفنّ إذ يبقى فرويد "من الأوائل الذين رسّخوا بالنظرية والتطبيق علاقة علم النفس بالأدب والفن والنقد"([30]) وبالفعل- كما يذكر احمد عكاشة– ليس هناك أديب أو فنان معاصر يستطيع الآن أن يتجاوز السيكولوجية الفرويدية في إنتاجه وإذا التفتنا إلى زاوية واحدة هي علاقة الطفل بوالديه فهل يستطيع أديب

---

[23]- سويف(مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني، (مرجع سابق)، ص79.

[24]-المرجع نفسه، ص79-80

[25]-سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني،(مرجع سابق)، ص79

[26]-المرجع نفسه،ص8

[27]-المرجع نفسه، ص82

[28]-المرجع نفسه،ص 82

[29]-فرويد(سيغموند)، حياتي والتحليل النفسي،(مصدر سابق)، ص76

[30]-المختاري (زين الدين)،المدخل إلى نظرية النقد النفسي، (مرجع سابق)، ص11

أو فنان أن يصنع عملا أدبيا أو فنيا من دون أن يحيط بالأسرار الكثيرة التي كشف عنها فرويد في هذه الناحية؟"([31]).

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- فرويد (سيغموند)، دون تاريخ، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة، إسحاق رمزي، الطبعة الخامسة، القاهرة:دار المعارف.
- فرويد (سيغموند)،1978، الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة: جورج طرابيشي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- فرويد (سيغموند)، تفسير الأحلام،2001، ترجمة نظمي لوقا، دون طبعة، دون مكان النشر: دار الهلال.
- فرويد (سيغموند)،1994، حياتي والتحليل النفسي،ترجمة مصطفى زيور، دون طبعة، دون مكان النشر: دار المعارف.

المراجع:

- إسماعيل (عز الدين)، دون تاريخ، التفسير النفسي للأدب، الطبعة الرابعة، الفجالة: مكتبة غريب.
- المختاري (زين الدين)، 1998، المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد (نموذجا) دراسة شعرية نقدية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب .
- سويف(مصطفى)، دون تاريخ،الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، الطبعة الرابعة،القاهرة: دار المعارف.
- وهبة (مراد)، 1974، يوسف مراد والمذهب التكاملي، دون طبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الدروبي (سامي)، دون تاريخ، علم النفس والأدب، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.
- عكاشة(احمد)، دون تاريخ، فرويد حياته وتحليله النفسي، دون طبعة، بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

[31]-عكاشة (احمد)، فرويد حياته وتحليله النفسي، دون طبعة (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، دون تاريخ) ص82